توظيف المصطلحات الصّوفية في رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا لعبد القادر عميش

Employing mystical terminology in the sonetto novel Love and Death in the Time of Corona By Abdelkader Omeish

الأستاذ الدكتور لخضر قدور قطاوي *

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)، guettaoui1959@yahoo.com

تاريخ الارسال2023/05/31 تاريخ القبول 2023/08/22 تاريخ النشر2023/09/30

ملخص:

يتناول هذا البحث جملة من المصطلحات الصوفية التي وظفها الدكتور عبد القادر عميش توظيفا فنيا وإبداعيا في روايته الموسومة بـ: الحب والموت في زمن كورونا sonetto . فقمنا بدراسة هذه المصطلحات من خلال العودة إلى المصادر والمراجع المتخصصة في مصطلحات السادة الصوفية. وقد حاولنا في البحث الإجابة عن أسئلة تتعلق بمدى توفيق الكاتب في توظيف تلك المصطلحات، وكذلك البحث في جماليات هذا المسلك من الناحية الإبداعية. لنخرج بعد ذلك بجملة من النتائج العلمية التي سجلناها في نهاية البحث.

Abstract

This study looks at a variety of Sufi concepts that Dr. Abdelkader Amishe used as artistic and creative endeavor in his novel entitled "Love and Death at the Time of the Corona sonito". We researched these terms by consulting sources and references that were experts in Sufi gentlemen's terminology. In the search, we attempted to answer questions regarding how well the author utilised those phrase, as well as examining the aesthetics of this course from a creative perspective. We then generated a series of scientific findings, which we documented at the end of the study.

مقدّمة:

عاش الكاتب عبد القادر عميش كغيره من الجزائريّين المثقّفين وغيرهم في العالم محنة طاعون كرونا، لكنّ صديقنا حوّل الألم إلى تسجيل فنيّ في رواية فنيّة ستبقى خالدة، والذي لفتنا في أسلوب سرده لأحداث الرّواية ونمّوها هو اللّباس الصّوفي الذي يعكس صورة المجتمع الجزائريّ وتأثّره بأعرافه. كما أنّ دراسة الأستاذ الأكاديميّة وتأثّره بالنّزعة الصّوفية كانا واضحين في عمله الإبداعي، ومن هنا رأينا أن نتساءل إلى أيّ مدى يكون الكاتب قد

* المؤلف المرسل: **الأستاذ الدكتور لخضر قدور قطاوي**

وفّق في توظيف المصطلح الصّوفيّ في روايته؟ وما هي أهمّ المصطلحات التي وظّفها في الرّواية ؟ وما جماليات مكوّنها في بناء العمل الإبداعيّ الذي خرج به؟

وأولا لماذا الاهتمام بالمصطلح؟ المصلحات هي مفاتيح العلوم كما يرى ذلك الرّازي، فكل قوم وفنهم ومصطلحاتهم التي يقوم عليها ذلك الفنّ، والجهل بتلك المفاتيح من شأنه غلق أبواب الفكر والإدراك لغايات ما ألفوا وما راموا نشره للأنام من فوائد جليلة القدر في بناء النّفس الإنسانية العالمة.

ولكن قد يتساءل سائل ما علاقة ذلك بالرّواية؟ والجواب عن ذلك أن الرواية هي أيضا علم إبداعي يجعل من الخيال مطية ليصوغ كثيرا من الحقائق العلميّة بطريقة إبداعية تختلف عن قوانين العلم التي تضبط المعرفة.

فمعرفة المصطلح الصّوفي وغيره في الرّواية يجعلك تستمتع بقراءتها ويسعفك في الاقتراب من روح وعقل ومشاعر المؤلّف لها. فلن تكون أبدا القارئ النّموذجيّ إذا لم تكتمل لديك الآليات التي تسقبل بها النّص الأدبيّ، فالنّص الأدبيّ له خطورته من حيث الفُهُوم التي تكتنفه والتّأويلات التي قد تعرض له.

فقد يمر بنا عند عبد القادر عميش في الرّواية مثلا مصطلح الخلوة في قوله: «كان الحَجْرُ أو كما يسمّيه الخلوة»."[1]" فكلمة الخلوة مصطلح صوفيّ له مفهومه عند علماء الصّوفية. يقول القشيريّ: « إنّ الخلوة صفة أهل الصّفوة، والعزلة من أمارات الوصلة»."[2]" ومفهومها كما عند الشّريف الجرجانيّ: «محادثة السّرّ مع الحقّ حيث لا أحد ولا ملك»."[3]" ويختلف هذا المفهوم الصّوفي لها مع المفهوم الفقهيّ الذي هو «غلق الرّجل الباب على منكوحته بلا مانع وطء»."[4]"

مصطلح الكشف

يصادفنا استخدام الكاتب لمصطلح (الكشف) في قوله: « قد شارف على عتبة الكشف»."[5]" فالكشف هو مصطلح صوفيّ يتعلّق بمنزلة الوصول والقرب من الذّات الواجب الوجود، ويروي لنا الإمام الشّعرا نيّ قولا للشّيخ أبي مدين المغربيّ جاء فيه: «وكان يقول:من أقرب رحلة تكون للمريد إلى حضرة الحقّ الخاصّة دوام الذّكر، فقد أجمعوا على أنّ من دامت أذكاره صفت أسراره، ومن صفت أسراره كان في حضرة الله قراره»."[6]"

فصفاء الأسرار علامة لكشفها كما يفهم من كلام سيّدي بومدين . رضي الله عنه . ولذا عرّفوا الكشف بأنّه الاطّلاع على ما وراء الحجاب من المعانيّ الغيبيّة، أو هو الاطّلاع على المعانيّ الغيبيّة من وراء الحجاب."[7]"

واستخدم الكاشانيّ مصطلح المكاشفة في معجمه بدلا من الكشف وقال في تعريف المكاشفة: « المكاشفة ههنا شهود الأعيان، وما فيها من أحوال في عين الحقّ، فهو التّحقيق الصّحيح بمطالعة تجليات الأسماء الإلهيّة»."[8]"

لكن الكاشانيّ بين صورة المكاشفة وحدّدها حسب منهجه في ثمانية أمور ، وهي أن المكاشفة تحقّق في البدايات، والأبواب، والمعاملات، والأخلاق، والأصول، والأحوال، والولايات، ثم درجتها في النّهايات."[9]"

وعرف الكشف محمد غازي بأنّه : « رفع السّتار عن الحقيقة. وهو مقام سَني خصّ به من اصطفى من عباده. وبدء الكشف الرؤيا الصّالحة التي هي جزء من النبوّة كما ورد في الحديث، وهو دعوة لتلقّي العلم اللّدني من لدن الحكيم العليم الذي أراد أن يصنع عبده على عينه وأن يعلمه ما لم يكن يعلم. والكشف دعوة للدّخول في الخلوة والاعتكاف، وأشراطه التّشديد في أداء الفرائض والنّوافل والغرق فيهما، ولا يقوى على هذا المقام إلاّ أولو العزم ومن أيّدهم الله بنصره».[10]"

فالملاحظ أن محمّد غازي لم يكتف بتقديم تعريف الكشف ولكنّه مع تعريفه له بين بأمثلة حقيقة الكشف، كما كشف عن علامة بدايته وهي الرؤيا الصالحة وعن شروطه التي ربطها بأداء الفروض والنّوافل والمواظبة عليها.

رتبة العارفين

يوظّف عبد القادر عميش في روايته مصطلح العارفين ويقصد به العارفين بالله. ويذكره ككاتب يدرك تماما أنّه رتبة الوصول ولا تتحقّق إلا بالمرور عبر التّدرج في منازل السّائرين إلى الله تعالى. يقول: « وأنّ الله قد أفاض عليه من كرامة العارفين الأبرار».[11]" لكن الكاتب يبدع في توظيف هذا المصطلح ويجعله لشخصيّة في رواية عالمية ويلبسه مسوح التّصوف ويصبغ روحه بألمهم ونبراتهم."[12]"

ونصادف هنا ثلاثة مصطلحات صوفية وهي الكرامة والعارف بالله والأبرار. فمصطلح العارف يقصد به مقام " يدلّ على كل من أبلغه الله سبحانه إلى شهوده وظهرت عليه أحوال، وحالة شخص مثل هذا تسمّى معرفة، أمّا هو فيسمّى عارفا، وقيل : إنّ العارف هو الذي يعرّفه الله نفسه عن طريق الإشراق، حيث يصل إلى حالة ينقطع فيها عمّا سوى الله ويبتعد عن حدود التعيينات الذّاتية ويفنى فناء تاما ويبقى في الله"."[13]"

أمّا مصطلح (الكرامة) الذي ورد في النّص السّابق الذي أشرنا إليه وهي كما يذكر التّهانويّ: «عند أهل الشّرع ما يظهر على يد الأولياء من خرق العادة».[14]"، ويرى شمس الدّين الرّازي أنّ كرامات الأولياء هي ما يكرمهم به الله تعالى من الأمور الخارقة للعادة."[15]" وأمّا مصطلح (الأبرار) فهو مرادف للأخيار والأبدال."[16]" والمراد بالأخيار كما جاء عند ابن عربيّ: أنهم صنف من الأولياء وهم: « كلّ من زاد على جميع الأجناس بأمر لا يوجد في غير جنسه من العلم بالله على طريق خاص لا يحصل إلاّ لذلك الجنس».[17]"

مصطلح العشق

وظف عبد القادر عميش هذا المصطلح من خلال توظيفه لمقطوعة من الشعر الصّوفي لجلال الدين الرومي إذ يقول"[18]":

إن كان ما في الوجود هو المعشوق

وليس العاشق إلاّ ستارا

فالمعشوق حيّ والعاشق ميت

فقد ورد مصطلح العشق في صيغة اسم الفاعل وفي صيغة اسم المفعول في هذه المقطوعة من شعر جلال الدّين الرّوميّ، ومصطلح العشق مصطلح صوفيّ كتب عنه ابن سينا رسالة قيمة وسمها برسالة العشق وحققها الدكتور حسين الصّديق، ونشرتها دار الفكر آفاق معرفة متجددة في طبعتها الأولى سنة 1426هـ الموافق لـ: 2005م.

تناول الشّيخ الرئيس أبو علي بن عبد الله ابن سينا في الفصل السّادس منها عشق النّفوس الإلهية وفيه ينتهي إلى قول جامع مفاده "أنّ المعشوق الحقّ للنّفوس البشريّة والملائكيّة هو الخير المحض"."[19]"

وفي الفصل السّابع يقول: « نريد أن نوضح أن كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقا غريزيا وأن الخير المطلق يتجلى لعاشقه، إلا أنّ قبولها لتجليه، واتصالها به على التفاوت، وأنّ غاية القربى منه هو تجليه على الحقيقة، أعني على أكمل ما في الإمكان، وهو المعنى الذي يسميه الصوفية بالاتحاد، وإنه عاشق أن ينال تجليه، وإن وجود الأشياء بتجليه».[20]" فهو يفصح هنا في نهاية بحثه عن الغاية من كتابته وهي العلاقة العشقيّة بين الإنسان والله المطلق بالمعشوقيّة والخيريّة."[21]"، فالحاصل أنّ ابن سينا يربط العشق بطلب منفعة خيرية يرجوها العاشق من معشوقه.

وحب المرأة عند الصّوفيين هو بداية طريق العشق الإلهي، وفي هذا المعنى يقول عبد القادر عميش: «الحسّ الجماليّ يا مّا عودة المجاجيّة هو الذي يفسّر افتنان الصّوفيّ بكلّ الموجودات الطّبيعيّة وعلى الخصوص المرأة».[22]"

ذلك لأنّ العاشق أضعف من المعشوق فهو الطّالب ومعشوقه المطلوب منه المفتقر إلى ما في يده، واستأنس الكاتب عبد القادر عميش لما للمرأة من وزن قيمتها الجمالية في الطبيعة بقول للشيخ ابن عربيّ مهد له بقوله في روايته: « اسمعي يا سيدتي الصالحة قول الشيخ الأكبر».[23]" ، ثم ساق نص ابن عربي وهو: «وليس في العالم المخلوق أعظم قوّة من المرأة لسرّ لا يعرفه إلاّ من عرف فيم وجد العالم؟ وبأيّ حركة أوجده الحقّ. تعالى».[24]"

مصطلح الدّرويش

ورد مصطلح الدّرويش في قول الكاتب: «وقد بدا درويشا صوفيا قد استولى على روحه حال صوفية تترجم عشقا دفينا».[25]" ويراد بهذا المصطلح مرتبة من مراتب البكتاشيّة، ويطلقون هذا المصطلح على المحبّ الذي يهتمّ

بآداب الطّريقة وعلومها، ويلمّ بجميع أركانها وكلّ مبادئها. ثمّ يجعل من نفسه خادما للعامّة منها."[26]" والبكتاشيّة هي فرقة صوفيّة تركيّة تنتسب إلى الوليّ التركيّ الخنكار السيّد محمّد بن إبراهيم النّيسابوري الشهير بالحاج بكتاش الذي ينسب نفسه إلى أولاد إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصّادق من آل البيت."[27]"

مصطلح الحضرة

وظّف عبد القادر عميش مصطلح الحضرة في قوله: « في هذه اللّحظة تناهى إلى أسماع أهل الحضرة آذان مسجد الحقّ ».[28]" وهو ، أي: مصطلح الحضرة مصطلح صوفيّ يحمل معنى حضور القلب مع الله عزّ وجلّ، قال ممدوح الزّوبيّ: «وهو من أهمّ الأركان في طريق السّلوك، وهو الاجتماع على ذكر الله عزّ وجلّ تحت إمارة الشّيخ أو وكيله المسمّى بالمقدّم». "[29]"

وعند الشّيخ الحدّاد أمثلة تطبيقيّة لمصطلح الحضرة فقد ورد هذا المصطلح في قوله الذي هو نقل عن عالم لعله سيدي عبد الرحمن الثّعالبيّ الجزائريّ: « ما أحبّ الله قوما إلا ودلهم طاعته في الذّكر في مجلس الحضرة أو العلم ».[30]"

وقد أطلقت كلمة الدّروايش على أتباع الشّيخ المهديّ بن محمّد بن أحمد السّودانيّ الثّائر على الاستعمار الإنجليزيّ في السّودان، وكان أتباعه فقراء يلبسون الجبّة المرّقعة زهدا في الحياة الدّنيا. وقد أعلنوا عن طريقتهم سنة 1881م. واستطاعوا تحرير كثير من أراضي السّودان وحرّروا العاصمة الخرطوم.

وقد جاءت تفاصيل وصف محاصرة الدّروايش للجيش الإنجليزيّ بقيادة القائد غوردون في مجلّة العروة الوثقى وهذا نصّ ما ذكر من رسالة غوردون مفادها :«ليس في طاقة أحد من البشر أن ينجينا من الخطر؛ لأنّنا محاطون من جميع الأطراف بالقبائل الثّائرة، فلم يبق لنا سوى التّضرّع إلى الله بتبديد شملهم، فإن لم تسعفنا العناية الإلهيّة بإجابة دعوتنا، فلا ريب أنّ تلك القبائل تنهب وتفتك بجميع سكان خرطوم قبل وصول نجدة إنجليزيّة».[31]" ثمّ تمّ إخماد ثورة الدّراويش سنة 1899 م. لكن لازالت لهم بقية في السّودان لطريقتهم ولهم كثير من الزّوايا المنتشرة بالسّودان."[32]"

خاتمة البحث

خرجنا في نهاية هذا البحث بجملة من النّتائج العلميّة الآتية:

1. رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا للكاتب عبد القادر عميش رواية غنية بتوظيف المصطلح الصّوفيّ الذي ساعد في تنضير وجه الإبداع الأدبي للرواية ومنحها هالة من رمزية وإشارة الصوفيين.

2. سعينا في بحثنا إلى تعريف بعض المصطلحات الصوفية التي وظفها الكاتب في روايته، لأن معرفة مفهوماتها من شأنه أن يذلل الصعوبات التي تواجه الطّلاب الباحثين خاصة، والقارئين عامة.

3. من ثمار البحث الوقوف على مفاهيم المصطلحات الصّوفية في مصادر ومراجع خاصة بالصّوفيين ومصطلحاتهم.

4. يكشف البحث عن ثقافة الكاتب العلميّة التي تعكسها توظيفه لمصطلحات علمية توظيفا إبداعيا في روايته.

ونقترح أن تكون هذه الرواية مادة خام لبحوث طلاب الماستر والدكتوراه.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأنوار المضية بين الحقيقة والشريعة، عبد الرحمن الثعلبي، تحقيق ودراسة فريد محرزي، وعبد الحقّ زدّاح، وأبو بكر عليوش، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م.
2. التقييد المحل للتعقيد في التصوّف، الشيح الحدّاد، حققه وعلّق عليه أ.د. عمّار طالبي، وأ. براهيم وعلي، ود. فريد زيداني، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 بدون.
3. حدائق الحقائق، تأليف أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر شمس الدّين الرّازيّ الحنفيّ (ت666هـ)، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1423،1هـ، 2002م.
4. Sonetto الحبّ والموت في زمن كورونا، عبد القادر عميش، دار خيال، للنشر والترجمة ، الجزائر ، ط1 وبدون.
5. النّصوص في مصطلحات التصوّف، محمد غازي عربي، دار قيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق . سورية، ط1، 1985م.
6. الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصّوفية تأليف ا إمام العلامة عبد الوهاب الشعراني، حققه وقدّم له طه عبد الباقي سرور، والسيّد محمد عبد الشافي، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان،ط1، 1423هـ ، 2003م.
7. معجم الصوفيّة، أعلام . طرق. مصطلحات . تاريخ، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ، لبنان، ط1، 1425هـ ، 2004م.
8. العروة الوثقى، تأليف جمال الدين الأفغاني، الشيخ محمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط3 سنة1403هـ . 1983م
9. رسالة في العشق، الشيخ الرّئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، شرح وتحقيق د.حسين الصّديق، وراوية جاموس، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1426هـ، 2005م.
10. الفتوحات المكية، ابن عربي (ت638هـ)، ضبطه وصححه ووضع فهارسه أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، 1999م.

11. كشاف اصطلاحات الفنون، تأليف الشيخ العلامة محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي المتوفى بعدسنة 1158هـ، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1427،2هـ، 2006م.

12. التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ، 1995م.

13. الرسالة القشيرية في علم التّصوّف، تأليف العارف بالله أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ ، 2001م.

14. معجم مصطلحات الصّوفية، تصنيف عبد الرّزاق الكاشاني (ت 730هـ)، تحقيق وتقديم وتعليق د. عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، مصر، ط1، 1413هـ ، 1992م.

15. الموقع الإلكتروني https://m.ahewar.orgs .asjp

16. https://www.asjp.cerist.dz › downArticle

مراجع البحث:

[1] . رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا ص9

[2] . الرسالة القشيرية ص101

[3] . التعريفات ص 101

[4] . المصدر نفسه ص 101

[5] . رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا ص9

[6] . الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصّوفية ص96

[7] . انظر معجم الصوفية لممدوح الزّوبيّ مادة كشف ص346

[8] . معجم أصطلاحات الصوفية ص346

[9] . انظر المصدر السابق ص364

[10] . النّصوص في مصطلحات التصوّف ص278

[11] . رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا ص9

[12] . انظر المرجع السابق ص 202 وص206 وص207 وغيرها.

[13] . معجم الصوفية ممدوح الزّوبي مادة عارف ص9

[14] . كشّاف اصطلاحات الفنون ج4 ص36

[15] . حدائق الحقائق ص163

[16] . انظر معجم الصوفية ممدوح الزّوبي مادة عارف ص8

[17] . الفتوحات المكية ج3 ص55

[18] . رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا ص71

[19] . رسالة في العشق لابن سينا ص81

[20] . المصدر السابق ص82

[21] . انظر المصدر السابق ص41

[22] . رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا، ص 118

[23] . المرجع السابق ص219

[24] . الفتوحات المكية ج4 ص 142

[25] . رواية sonetto الحب والموت في زمن كورونا، ص170

[26] . انظر معجم الصوفية ممدوح الزّوبي ، ص161

[27] . انظر الموقع الإلكترونيhttps://m.ahewar.orgs .asp

[28] . معجم الصوفية ممدوح الزّوبي ، ص172

[29] . المرجع السابق ص130 و131

[30] . التقييد المحلّ في التّصوّف، حققه وعلّق عليه أ.د عمّار الطالبيّ، ود. فريد زيداني، وأ. إبراهيم وعلي، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 وبدون ص134

[31] . العروة الوثقى، تأليف جمال الدين الأفغاني، الشيخ محمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط3 سنة1403هـ . 1983م.

[32] . انظر معجم الصوفية ممدوح الزّوبي ص160